طبيعته وفنـــونه

للاستاذ السباعي السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم العليا

نرانا مضطرين قبل التكلم فى طبيعة الشعر الجاهلي وفنونه ، أن نسوق القول عاماً فى طبائع الشعر القديم كله ، حتى نرجع الشعر المذكور إلى الطبيعة التى تلائمه وإليها ينتمى .

فان من الشعر : ما هو قصصي ، ينصرف إلى القصة فيذكر الحروب وأبطالها ، مازجاً بذلك مناداة الآلهة واستيحاءها ، فهو فى معناه شعر اجتماعى ، تفنى فيه شخصية الشاعر إلى حيث لا يراها الانسان ، ثم هو فى لفظه طويل بالغ فى الطول ، تضم القصيدة الواحدة منه الآلاف من الأبيات ، ولكنها لا تتقيد بلون واحد من الوزن ، وكثيراً ما يعتمد فى إنشادها على الموسيقى ، وهذا النوع يلائم كل أمة فى فطرتها الأولى ، إذا تضامت برابطة اجتماعية تصل بين أفرادها فى الدفاع والاغارة ، وأخرى دينية توحد بينهم فى العقيدة ، على تعدد آلهتهم ومعبوداتهم ، كأمة اليونان فى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد .

ومنه ما هو تمثيلى يعتمد على الحوار المصحوب بالحركة والعمل ، والصادر عن كثير من الأشخاص ، دون اشتماله على أمثال سأل وأجاب ، أو قال وقالت : نترى المتحاورين فيه يتحدثون وهم يغدون ويروحون ، ويأتون من الأعمال ما يستلزمه هذا الحوار ، معتمدين فى ذلك على ما هنالك من : غناء ، وموسيقى ، ورقص ، وهو فى موضوعه أوسع دائرة من القصص ، لأن القصة فيه غير قاصرة على الأبطال والحروب ، ولا مقيدة باستيحاء الآلهة ومناجاتها ، وظهوره فى كل أمة نتيجة لرقى عقلى كبير ، وحياة ديمقراطية صحيحة ، كأمة اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد .

ومنه ما هو غنائى يخرج عن الدائرة الاجتماعية للقصص والتمثيل ، إلى شخصية الفرد أولا ، وقبل كل شيء ، فلا يزال يصور نفسيته وما يتصل بها من وجدان وميل ، ولا يزال صاحبه يفنى نفسه بحبه وبغضه ولذته وألمه ، وهو نتيجة لرقى الشخصية الفردية ، وتحررها من قيود الاجتماع المسيطرة على الأفراد من غير رأى لهم ، ومن شوائب العقيدة المشركة للآلهة فى كل أعمالهم ، ولذلك كان المرحلة الوسطى لأخويه فى الأمم التى وجدت بها

المراحل الثلاث ، فقد ظهر فى أمة اليونان هذه ، فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

فأنواع الشعر ثلاثة ، ونحن إذا عرضنا لأسبابها ومميزاتها نطبقها على العرب فى جاهليتها ، لانجدها تهيأت إلا للشعر الغنائى فحسب : نعم كان لها شعر ذو ذكر قوى لأبطالها ، ووصف معروف بحروبها ، ولكنه لم ينهض أو يسمى قصصيا ، لأنها قالته غير مطيلة فيه ، ودون أن تقصى شخصيتها أو تستوحى آلهتها ، وكان لها حوار يظهر فى القصيدة بين عاشقين ، أو متخاصمين ! ولكنه لم ينهض كذلك أن يسمى تمثيليا ، لأن الحوار فيه على ضيق دائرته وقلته ، لم يتجرد من قلت وقالت ، ولم يصحب من الممثلين بالحركة والعمل ، كما لم يعتمد على ما اعتمد عليه التمثيل من رقص وموسيقى وغناء .

وإذن : الشعر الجاهلى غناء كله من طبيعته وبيئته ، وبقى كذلك بعد الجاهلية عن محاكاة وتقليد ، وليس يضير العرب من ذلك شيء ، لأن شاعرية الأمة لا تقاس بأنواع الشعر ، بل بالدرجة التى بلغت إنتاجا وجودة ، فى النوع الذى تهيأت له ، والأمة العربية قد بلغت فى الشعر الغنائى مبلغا لم تشاركها فيه أمة أخرى ، فقد قالته فى كل عصورها ، فجاء فى عمومه معبرا عن الجمال الفنى المطلق ، الذى تنشده الإنسانية كلها ، وليكون صلة بين شعوبها وأجناسها على اختلاف بيئتها وعصورها ، كما جاء فى خصوصه مرآة تمثل أصدق تمثيل : شخصية الشعراء والبيئات ، وحياة الأفراد والجماعات ، حتى أنه ليعد من أصدق مصادر التاريخ ، على اختلاف الأمكنة والعصور ، وحسبه أن أدى رسالته بقوة فى هاتين الناحيتين ، فليس بعد ذلك للشعر منال .

هذه طبيعة الشعر الجاهلى ، فإذا قلنا فنونه ، فإنما نقصد إلى الفنون الداخلة فى هذه الطبيعة ، من نسيب وفخر ، ورثاء ومدح ، وهجاء ووصف ، لا أى نوع من النوعين الآخرين ، وهذه الأبواب الستة هى أهم فنونه ، وما عداها راجع إليها ، وهاهى كلمة موجزة عن كل :

النسيب : يرادفه التشبيب والتغزل ، وكلها راجعة إلى المرأة فى وصفها حسا ومعنى ، وإظهار الميل إليها ، والكلف بحبها ، مع مايتبع ذلك من التألم لفراقها ، والتشوق إلى قربها ، ونحو هذا مما يدل على شدة الصبابة ، وإفراط الوجد ، وتصورها فى كل ذى صلة بها ، أو مشابه لها من : الديار والآثار ، والنبات والحيوان ، والرياح والبروق ، وقد شغل النسيب فى الجاهلية مكانا عليا من الشعر ، ولا يبعد أن يكون أقدم فنونه ، لتقدم علاقة الرجل بالمرأة ، ولأن حياة البداوة تجعل مشاركتها له مجسمة بارزة ، هذا إلى ما للحل والارتحال الدائبين بتقلب الفصول والأيام ، من خلق أسباب الهوى والهيام ، لما فيها من قرب وفراق ، وتواصل وبعاد ، ولذا كثر فى العرب العشاق المتيمون ، أمثال المرقش الأكبر ، وعبد الله ابن العجلان ، ومالك بن الصمصامة ، ومسافر بن أبى عمرو ، وعروة بن حزام : فهؤلاء لهم أمثال وأشباه عاشوا للمرأة وفى المرأة ماتوا ، فخلص لها شعرهم كما خلص لها حبهم ، على أنها

لم تعدم من غير المتيمين الكثير يقال فيها من الأشعار ؛ إن لم يكن في وصفها قصداً : تغزلا وافتتانا ؛ فني مطالع القصائد عرضا ، توصلا لأغراضها وتمهيدا . وأرى أن تختص تلك المطالع باسم التشبيب ، فيكون هذا فرق ما بينه وبين التغزل والنسيب ، أما الفرق بين هذين ، فعلى تعذر حده ، يمكن أن أقول إن التغزل ما عمد فيه الشاعر إلى وصف محاسن المرأة ، مدفوعا إلى ذلك بعقيدة أو مسوقا إليه بصناعة ، والنسيب ما توجه فيه إلى ذكر الصبابة والوجد وألم الهوى والفراق ، صادرا في ذلك عن وجدان وشعور ، لا يكونان إلا للمحبين المغرمين ، ومن هنا أرى أن كلمة النسيب أنسب أختيها لأطلاقها على هذا الفن من الشعر كما حققناه .

الفخر : هو تمدح الشاعر بنفسه وقومه ، وذكر مآثرهم ومفاخرهم ، وأكثر ما تناول في الجاهلية : تناول الشجاعة والنجدة ، والبأس والقوة ، وإجارة الجار ، ومنع الحريم ، وإكرام الضيف ، وإيواء الطارقين ، وهي خير ما كانت تقدس العرب إذ ذاك من صفات ، وأكثر ما كان يظهر في حياتهم ويتطلبه عيشهم ، وأمثل ما كان يقع الفخر إنما كان من السادة الأشراف والأبطال الفرسان ، ومن جرى مجرى هؤلاء من الصعاليك المغيرين ، فمن السادة : زهير بن جناب ، والحصين بن حمام ، والمهلهل بن ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، والأفوه الأودى ، وعبد يغوث الكهلاني ، وعامر بن الطفيل ، وأبو قيس الأوسى ، وقيس بن عاصم المنقرى ؛ ومن الفرسان : عنترة العبسى ، وعلقمة بن عبدة ، وحاتم الطائى ، وسلامة بن جندل ، وقيس ابن الخطيم ، والأغلب العجلى ، وعمرو بن معديكرب ، وأبو محجن الثقفى ، وزيد الخيل الطائى ؛ ومن الصعاليك المغاوير : عروة بن الورد ، وتأبط شرا ، وسليك بن السلكة ، والشنفرى .

الرثاء : هو بكاء الميت بتعديد محاسنه وصفاته ، في ثوب من التفجع والحسرة ، والتلهف والأسى ، مع استعظام المصيبة واستبعاد الصبر ، إن كان الميت من ذوى الرياسة والأقدار ، وقد كان من عادة القدماء فيه ، أن يضربوا الأمثال بمن سلف من الأنبياء والمرسلين والأمراء والملوك ، وبما هلك من الوعول المعتصمة بقنن الجبال ، والأسود الخادرة في ثنايا الغياض ، وحمر الوحش الضاربة في مجاهل القفار ، وبالنسور والحيات ، ذات البأس القوى والعمر المديد ، وأن يخلوه دون سائر فنون الشعر من التشبيب ، الذى اعتادوا أن يفتتحوا به القصائد في كل تلك الفنون ، وكان الرثاء في الجاهلية ذا شأن كبير ، لما كان بها من حروب وغارات ، لا تفتأ تغتال الشجعان والأبطال ؛ وقد شارك النساء فيه الرجال أكثر مما شاركنهم في باقى الفنون ، لأنهن أشجى قلوبا وأشد جزعا ، لما ركب في طباعهن من رقة العاطفة وضعف الاحتمال ؛ ولعل أول من أكثر فيه وأطال المهلهل في رثاء كليب أخيه ، والمراثى المشهورات كثيرات ، على أن هذا الباب قد عم وفاض ، إذ الموت شامل ، والمصيبة على تحريك النفوس بالبكاء والرثاء ذات غلبة واقتدار .

المدح : هو طريقة التنويه بفضائل الممدوح، والتعريف بصفاته إشارة بذكره ورفعا لشأنه ، سيان فى ذلك وصفه على سبيل العموم والاجمال بأمهات الفضائل، كالشجاعة والعفة ، والعدل والعقل، أو تخصيصه على سبيل التفصيل بما هو به أشبه ، وله أيسر ، كالاقدام فى الشجاع ، والرأى فى المشير ، والعدل فى السيد ، وغير ذلك من الصفات النفسية اللائقة ؛ وليس للمادح أن يتجاوزها إلى غيرها : من الحسية كالجمال، والعرضية كالغنى — إلا ممزوجة بها وفى قصد واعتدال — على هذا كان مدح العرب فى الجاهلية، ثم إن ماركب فى نفوسهم من عزة وأنفة وإباء وكرامة ، جعلهم يضيقون دائرة مدحهم ، فلم يتعدوا به لذاتهم وذوى الرياسة من عشائرهم ، حتى كان السؤال بالشعر والاستجداء بالمدح آخر عهدهم ، فظهر فيهم من تكسب به فى ترفع كزهير ، أو تنزل كالأعشى ؛ أو بين بين كالنابغة ، ولكن قلة هؤلاء على شهرتهم وبعد صيتهم لم تخرج بالمدح الجاهلى فى جملته عما رسمناه .

الهجاء : ويكون على عكس المدح ، بتجريد المهجو من الفضائل الرائعة ، والصفات المرغبة، كما يكون بوصمه بالرذائل الشائنة، والأوصاف المنفرة، وأشده ماكان بالموازنة والتفضيل؛ ولم يتجاوز هجاء الجاهليين القبائل إلى الأفراد ؛ ولا العف من القول إلى الاقذاع؛ إلا حيث صار الشعر آلة للتكسب عند بعض الشعراء ، فصار من الحتم عليهم أن يهجوا ليخيفوا أو ينتقموا ، وأن يخرجوا فى هجوهم من القبائل إلى الأشخاص، منتهكين بذلك ما كان مضروبا من سياج ؛ ولعل أول من عرف بذلك الأعشى ، ثم جاء بعده الحطيئة فأفرط وزاد ؛ حتى لم يعف عن هجاء نفسه بما لا يرضى أن يهجوه به إنسان ، وكذلك فعل مع أمه وأبيه ؛ على أن هذا لم يدنس العصر الجاهلى كله ، لأنه كان آخره ، ومقصورا على آحاد .

الوصف : معناه الكشف والاظهار ، وأبلغه ماقلب السمع بصرا ؛ والشعر إلا أقله راجع إليه ، فهو باب فى عمومه واسع النطاق ، ولكنه قصر فى عرف الأدباء على غير ما اندرج من أوصاف تحت غيره من الأبواب ، وقد طرقه الجاهليون فى كل ما شملته باديتهم ، وتناولته حاجتهم من أرض وسماء ، وأحداث جو ، وألوان نبات وحيوان يدب على الأرض ، وطير يصعد فى الهواء ؛ ولكنهم تفاضلوا فيه كما تفاضل الناس فى سائر الأشياء : فمنهم من أجاده فى كثير من الأنحاء ، وإن غلبت عليه الاجادة فى بعضها ، كامرىء القيس ؛ ومنهم من قصرت إجادته على شىء دون شىء ، كابن أبى دؤاد الايادى ، وطفيل الغنوى ، والنابغة الجعدى ، فى نعت الخيل، وطرفة بن العبد ، وأوس بن حجر فى الابل ، والشماخ بن ضرار فى القسى ، والأعشى فى الخمر وهكذا ، ومن ثم عرف فريق من الشعراء باسم الشعراء الوصافين كهؤلاء .

السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم